العدد (2187) السنة الثامنة - الأثنين (11) تموز 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

على هامش الصراحة

نادي العلوية

إحسان شمران الياسري

بلا فخر، يقف نادي العلوية في طليعة المرافق الاجتماعية التي تأسست مطلع القرن الماضي، وشكلت في وجودها، وفي مسيرتها التي جاوزت القرن، نقطة ضوء في تأريخ المجتمع العراقي. وقد تضاربت الأنباء (بالنسبة لي) عن الجهة التي بادرت بتأسيسه..

فبعضهم يعتقد أنها المرحومة المس (بيل)، على اساس ان المجتمع العراقي لم يتوفر على نخبة مقدامة لتفعل هذا، ومنهم من يقدم معلومات أخرى عن عدد من العراقيين (الغيارى) الذين اندفعوا لتنفيذ الفكرة.. وبالنهاية، نحن إزاء صرح ثقافي واجتماعي كبير لا ينفصم عن تاريخ بغداد وأهل بغداد.

في هذا النادي، ورغم كل ما جرى، لم تسجل عليه خروقات من شاكلة الخروقات التي فعلها بعض أولاد المسؤولين في نواد اخرى عهد النظام السابق.. ولم تُنتهك في النادي الفضائل الاجتماعية، وراحة الاعضاء من ممارسات تعرضت لها نواد اخرى للأسف.

وما أن تغيرت الأحوال في البلاد عام ٢٠٠٣، وقف النادي على رجليه، ومارس دوره في خلق المناخ الملائم الذي يمسح على الصدور والقلوب ويؤمّن لها الأمان الذي تخسره يومياً في العمل وفي الشارع وفي نقاط التفتيش والكتل الكونكريتية التي (وثقت) قوة الأجهزة الأمنية، إذ منعتنا من الحركة على نظرية (اليريد شي يعوف شي)..

في هذه التقدمة عن النادي، لا يفوتني أن أذكر بحزن أشياء جديدة عن النادي ليتها لن تدوم، وإن دامت، سيتحول النادي الى مرفق تجاري له أولويات أخرى لم تكن في حساب (المس بيل) يوم ذاك.. فعلى سبيل المثال، وهذا أسوأ مثال بالطبع، (مُنع) الاعضاء من دخول النادي لأن مقتضيات العمل التجاري حكمت ان تقام حفلة لمن يستطيع أن يدفع ويشاهد مُطربين ومطربات عرباً وعراقيين.

شخصياً لست عضواً في ناد آخر، ولكني فخور بانتمائي لنادي العلوية، أما ان يوقفك الحرس في ساحة الجندي المجهول القديمة ومعك عائلتك التي انتظرت هذه الفعالية، ويقول بالنص (استادي ماكو دخول للأعضاء)!!.. (الدخول للحاجزين على الحفلة حصراً!!).. وكلمة (حصراً) تقابلها في موسوعات اللغة عبارة (أنت مو شكول هاي الحفلات!!).

وفعل النادي أشياء أخرى من شاكلة إغلاق قاعة تقام حفلة بها وحصر الدخول بها على من دفع.

وبدلاً من الغناء في الهواء الطلق للجمهور، أصبح (الجالغي) البغدادي حكراً بمن يدفع..

إن اتجاه إدارة النادي للعمل التجاري يمكن أن يتطور إلى إدخال مبردات إيرانية وخزانات ماء بلاستك سورية وعرضها في الساحة المخصصة لوقوف السيارات، لنترك سياراتنا في ساحات الوقوف خارج النادي.

أتمنى أن تفسر إدارة النادي هذا التصرف الذي ينتقل به إلى أفق آخر. ويحوّل آخِر واحه جميلة في بغداد الى بورصة للأذواق..

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

سرقة آثار العراق.. سرقة التاريخ

زهير كاظم عبود

تقضي الاتفاقيات الدولية أن تحترم الدول في حال الاحتلال والنزاع العسكري الممتلكات الخاصة والموارد الطبيعية، وأن لاتتصرف بهما بأي شكل من الأشكال، حيث أن القانون الدولي يعتبر أي تصرف ضار تصرفا غير مشروع يوجب المسؤولية القانونية، ويشكل جريمة وانتهاكا جسيما وفقاً لبنود اتفاقية جنيف.

وخلال الفترة التي تعرض فيها العراق الى الاحتلال سرقت آثار عراقية تعود الى العصور القديمة لبلاد الرافدين، وتخص الحضارة الإنسانية، وهي من ممتلكات العراق الآثارية، وتعد من التحف الفنية ذات القيمة الجمالية والفنية والمادية العالية، وموورست سرقة تلك الآثار بشكل كبير ومستمر ، حيث تم تسريب العديد منها سواء من قبل مهربي الآثار أو من قبل الوحدات العسكرية الأجنبية التي تمركزت في المناطق الآثارية أو قرب مواقع وجود تلك الآثار سواء في المتاحف او في المخازن المعدة للحفظ .

وتم عرض العديد من هذه القطع في دول الجوار او في بلاد بعيدة ، ويمكن لمهربي الآثار او ضعاف الضمير ان يسلكوا طريق التهريب لآثار العراق طمعا في جني ربح مادي غير عابئين بقيمتها الاعتبارية ، وارتباط تلك الآثار بالتاريخ القديم لبلاد مابين النهرين ، غير ان وصول العديد من تلك الآثار إلى المزادات العلنية أو المعارض في دول بعيدة عن العراق يدلل على أن عددا من منتسبي تلك الوحدات قام بسرقتها عمدا ، معتمدا على عدم تفتيشه وعدم مروره على المطارات العراقية وتدقيق سلطات الحدود العراقية ، ونطالع الأخبار بين فترة وأخرى حول إعادة عدد من هذه الآثار إلى العراق بشتى الطرق والوسائل ، حتى وصل الأمر الى شراء تلك اللقى والقطع الذهبية والآثار بأثمان باهظة ، لغرض إعادتها إلى أهلها .

في عام ٢٠٠٣ كشفت دائرة الهجرة في الولايات المتحدة الأمريكية عن عثورها على كنز عراقي قديم يعود الى العصر السومري ، تم إخفاؤه في حاوية عسكرية أميركية في (جاكسونفيل)، حيث نقل ان عدداً من العاملين ضمن الفريق الطبي الجراحي العامل في العراق ضمن قوات الولايات المتحدة الأمريكية هو الذي قام بإخفائه خلف عدد من اللوحات الفنية والمواد الأخرى .

وتم تهريب عدد من القطع من الزمن البابلي يعود تاريخها الى ماقبل ٤٠٠٠ عام ، تم العثور على عدد منها، في حين لم يزل عدد آخر منها مفقوداً حتى الآن . وقد تسلمت السفارة العراقية في واشنطن عدداً من القطع الاثرية المسروقة بمساعدة مكتب التحقيقات الفيدرالي ، غير أن الأكثر غرابة أن يتم نقل أعمدة رخامية وتماثيل بالحجم الكبير يتم العثور عليها بين فترة وأخرى في بيوت جنود أمريكان عملوا مع القوات الأمريكية في العراق ، ففي عام ٢٠١٠ تم الإعلان عن وجود قطعة من المرمر تعود إلى احد قصور صدام، تم العثور عليها في احد المزادات في ولاية تكساس. حضر المسؤولون الفيدراليون إلى المزاد بصفة مشترين، فكشفوا القطعة في مرآب احد الجنود الاميركيين مع مواد أخرى تعود إلى عهد صدام ، ولم يتم التوضيح عن الكيفية التي تمت بها سرقة مثل تلك القطع .

وآخر ما تم الإعلان عنه العثور على قلادة منقوشة بالذهب تعود الى العصور الرافدية القديمة ، كانت قد بيعت عام ٢٠٠٧ في مزاد كريستي بمبلغ ١٠٠ ألف دولار، تمت اعادتها الى الحكومة العراقية ، وهذه القلادة هي واحدة من التحف الفنية الكثيرة التي سرقت من قبل القطعات الاميركية ومن قبل المتعاقدين من المتاحف والمواقع الآثارية العراقية خلال سقوط نظام صدام عام ٢٠٠٣. ومسلسل العثور عن القطع الأثرية التي تعود الى العصور العراقية القديمة لن ينتهي ، ومع ان القوانين والاتفاقيات الدولية تمنع الاستيلاء على تلك الآثار ولا تخول أي سلطة الاستيلاء عليها ونقلها الى خارج العراق ، ولاتخوله حق عرضها وبيعها في المزادات والأسواق .

واللافت للنظر أنه لم يجر تحقيق نزيه وعادل مع سارقي هذه الأثار ولم يتم التعرف على هوياتهم ومحاكمتهم بغية إدانتهم وتحديد العقوبة التي تفرضها القوانين عليهم .

وإذا كانت تلك القوات تتمركز قرب مواقع تلك الآثار فإنها مسؤولة عن حمايتها ، فإذا ما ارتكب أحد أفرادها سرقة الآثار فتلك جريمة تقترن بظرف قضائي مشدد ، وقد وصلت السرقات الى المتاحف والمخازن والمستودعات ، وتذكر الأخبار ان حوالي ١٥ الف قطعة آثار سرقت من العراق ، ولم يزل النهب والسرقة والتهريب مستمرين حتى اليوم ، ولم نلمس أي جدية من أي جانب في ملاحقة السراق والمهربين ، حيث يطالع المواطن العراق أخباراً بين فترة وأخرى تشير الى العثور على عدد من القطع تتم إعادتها باحتفال ، مع غض النظر عن الجرائم الدولية والجنائية والعقوبات الشديدة التي يفرضها قانون الآثار العراقي على السارق والمهرب .

وكان لمهربي الآثار العراقية في العهد الصدامي ساحة مفتوحة على رأسها صهر الدكتاتور أرشد ياسين الذي لم يطله القانون العراقي ،إلا أن جنود القوات الأمريكية العاملة في العراق كانوا اشد إيغالاً وممارسة في تهريب الآثار العراقية وسرقتها بعد أن أمنوا العقاب ، وغاب عنهم الرادع والرقيب ، فنبشوا الآثار المطمورة ، وفتشوا في المناطق المحددة للمدن القديمة ، ولم يوفروا منطقة واحدة دون تفتيش .

وقد عثر حتى اليوم على ٢٠٠٠ قطعة آثار مسروقة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى ٧٠٠ قطعة في الاردن و٢٠٠ قطعة في سوريا كما عثر على عدد آخر من القطع في فرنسا وسويسرا.

وفي الوقت الذي تعتبر تلك الآثار جزءاً من التاريخ العراقي القديم ، فإننا بحاجة إلى وقفة جادة ومساندة دولية في لزوم إعادة الآثار المسروقة ، وملاحقة الجناة مهما كانت صفاتهم وجنسياتهم ، وكذلك ملاحقة المزادات التي ترعى وتسوق تلك الاثار المسروقة ، وكلنا أمل ان الحرص على هذا الجانب موقف وطني حيث ان سرقة آثار العراق تشكل سرقة جزء من التاريخ العراقي.

حضور النموذج العراقي في الربيع العربي

علاء خالد غزالة

قال أحد المشاركين في برنامج حواري بث على إحدى القنوات الفضائية العربية ان شرارة "الربيع العربي" انطلقت من العراق، فقاطعه المذيع بالقول "ان شرارة الربيع العربي انطلقت من تونس، من حادثة ابو عزيزي وما تلاها من احداث في الشارع التونسي". فخطر لي سؤال: لماذا لم تنطلق شرارة الربيع العربي من العراق؟

والحقيقة ان لا احد تقريبا يشير الى تجربة العراق المريرة في عام ١٩٩١، عندما انتفض الشعب العراقي من شماله الى جنوبه ضد حكم الطغيان الصدامي الذي أذاقه الأمرين من حروب طاحنة ومغامرات غير محسوبة ادت الى فقدان مئات الآلاف من الأرواح البريئة، إضافة الى تفرد "القائد الضرورة" بالسطة واسكاته كل معارضة بطرق وحشية، ليس اقلها الحرمان من بركات النظام، وليس اكثرها الترحيل والسجن والتغييب والاعدام، مرورا بأساليب التحقيق المروعة في زنزانات اجهزة الامن التابعة للنظام.

خرج الشعب في ثورة غير مسبوقة في العالم العربي على حاكم جائر بعد ان ادت مغامرته في الكويت الى تحطيم البلاد ماديا ومعنويا نتيجة الهزيمة المذلة التي وضعها فيها النظام، وما رافقها من بوادر للعزلة الدولية التي سوف تستمر الى حين سقوط النظام بعد اثنتي عشرة سنة من تلك الثورة الشعبية. ثورة بدأها جندي في البصرة بان صوب ماسورة دبابته في وضح النهار الى صورة كبيرة لـ"القائد الرمز" ودمرها بقذيفة ربما تكون آخر ما بقي لديه من ذخيرة، وهو ما لم يجرؤ عليه من قبل أي مواطن عراقي. وفجأة تحطم حاجز الخوف، وسرعان ما تهاوت اركان النظام في معظم انحاء العراق، من الشمال الى الجنوب، مرورا بضواحي بغداد، وباتت البلاد تعيش اجواء الثورة. لم تكن تلك الثورة سبباً لانهيار النظام الصدامي، ولم تصبح مثالا لشعوب المنطقة العربية التي ترزح تحت انظمة شمولية مماثلة. بل ان تلك الانتفاضة ربما ادت في الواقع الى تأخير الربيع العربي عشرين عاما اخرى. حينما رأت الشعوب العربية مقدار القمع الذي مارسه النظام على الشعب الذي تجرأ على رفع صوته في وجهه. ربما تكون الشعوب العربية قد وضعت في حساباتها ان انظمتها الحاكمة لن تكون أفضل في تعاملها مع مثل هذه الحركات من النظام الصدامي. لكن سقوط النظام في العراق عام ٢٠٠٣ على ايدي قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة، وما تلاه من تحرر نسبي للعراقيين على مستويات عدة، بدءا من حرية التعبير عن الرأي، الى المشاركة في صنع القرار عن طريق الانتخابات البرلمانية والمحلية، كل هذا لم يكن هو الآخر سبباً مباشراً في تحريك الشارع العربي للمطالبة بالمزيد من الحريات وتحسين اوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ومرة اخرى يطرح السؤال نفسه، لماذا لم يصبح العراق مثالا للشعوب العربية؟

قد يكون الجواب على ذلك سهلا، نظراً لأن العراق مرّ بفترات مظلمة بعد الغزو الاميركي وعانى من تفشي الارهاب وتدني مستوى الامن وسيطرة بعض العصابات على مقدرات الدولة وحتى التمكن من الوصول الى هرم السلطة والتأثير على عملية صنع القرار. كذلك شهد العراق شيوع الفساد الاداري في كافة مفاصل الدولة حتى صار أمثولة في التقارير الدولية، التي لاشك ان المثقفين العرب، وحتى رجل الشارع، قد اطلعوا عليها وربطوها برد فعل انعكاسي بالتحرر والتخلص من نظام الاستبداد الشمولي. وربما ساورت الشعوب العربية المضطهدة الشكوك بانها قد لا تكون افضل حالا إن أزاحت جلاديها عن سدة الحكم. ومرة اخرى، قد تكون الاحداث في العراق بعد ٢٠٠٣ قد مدّت من عمر الحكام العرب المتسلطين على رقاب شعوبهم. لم يصبح العراق مثالا لهم لانه لم يكن يعط صورة المثال المطلوبة من بين الفوضى العارمة التي اعترته، رغم ان التغيير في العراق قد احدث نقلة هائلة في حياة الشعب العراق، من الناحيتين السياسية والاقتصادية على الاقل. لكن الفشل في كبح جماح الفتن على المستوى الاجتماعي، والذي اثارته المطاحنات السياسية، قد أفضى الى تصوير العراق على انه بلد لا يمكن ان تحكمه إلا دكتاتورية قادرة على التعالي على الخلافات الطائفية والعرقية، شأنه في ذلك شأن بقية شعوب المنطقة.

على كل حال، فان الانتفاضات العربية قد لا تكون "ثورات" مجيدة بكل معنى الكلمة، ولكنها بكل تأكيد حركات بوجه الطغيان استقت مدها بعيدا عن تجربة العراق، وان كانت تسعى حقيقة الى ان تصبح مثله في اقل تقدير. ربما تكون اركان الحكومة قد سهلت عملية ازاحة زين العابدين بن علي عن السلطة في تونس، وقد يكون دور الجيش المصري اكبر مما يبدو في دعم انتفاضة ساحة التحرير واجبار حسني مبارك على التنحي. لكن ذلك لا يقلل من شأن الرجال والنساء الذين تجرأوا على التجمع والتظاهر ومقارعة اجهزة هذه النظم القمعية التي لا تعرف الرحمة في تعاملها مع مثل هذا الوضع.

وفي اليمن لا يزال مئات الآلاف من المتظاهرين يملأون الشوارع والساحات مطالبين بتنحي علي عبد الله صالح عن الحكم، والتحول الى نظام ديمقراطي حقيقي يقوم على حرية التعبير والتعددية ويحارب الفساد ويوفر الخدمات لشعبه ويعمر مدنه ويقوده الى الرخاء والازدهار. لا اشك ان الثورة في اليمن سوف تنجح في نيل مسعاها على الرغم من تمسك الرئيس ببراثن السلطة الى آخر يوم، ولجوئه إلى أساليب أصبحت بالية في زمن التواصل الفوري الذي نعيشه الآن. وانتفاضة البحرين اكثر خجلا ولكنها وضعت نفسها على خارطة الثورات واجبرت الحكام على الاستماع اليها وتقديم تنازلات لم تكن في مجال التصور قبل فترة وجيزة. ومن الممكن ان يفضي الحوار بين حكومة البحرين ومعارضتها الى تحسين الحريات وتقسيم اكثر عدلا للسلطات في هذا البلد الصغير بحجمه، ولكن الكبير بموارده. أما سوريا، فهي اشبه ما تكون عراقا عام ١٩٩١. المنتفضون في الشوارع يطالبون بإسقاط النظام الشمولي، والجيش يهيل عليهم سيل الرصاص والقذائف المدفعية. بشار الاسد يقف في محفله مبجلا من زبانيته وهو يعلن ان الجيش يقوم بعمليات تطهير المدن من "الخارجين على القانون"، الذين اعلن انهم عشرات الآلاف. يعلم العراقيون ذلك، فقد خبروه. اذا تجرأت على الوقوف بوجه الطاغية فانت مجرم ومخرب وارهابي وسيكون الموت لك ولعائلتك ولجيرتك ولكل مدينتك.

غير ان سوريا ٢٠١١ غير العراق ١٩٩١. فلم يكن هناك من فيسبوك، ولا هواتف نقالة، كما لم تكن هناك قنوات فضائية. ولم تكن الاحداث في العراق عندها سوى خبر في الإذاعات عن تحركات المنتفضين الذين لم يعلن لهم صوت ولا صورة، ولم يعلم احد لهم شكلاً ولا لوناً. كانوا أناساً من العامة لم يستطيعوا ان يوصولوا صوتهم الى العالم إلا مشوّهاً بدعايات مغرضة من اجهزة النظام الحاكم رغم تزعزع اركانه، وبتدخل سمج غير مرحب به من دول اقليمية ارادت الحصول على حصة في كعكة العراق التي بدت دسمة آنذاك.

وحينما ذبحت اجهزة النظام القمعية مئات الآلاف من الأبرياء واودعتهم مقابر جماعية يندى لها جبين التاريخ، لم يعلم بذلك سوى قلة من الناس خارج العراق، ولم يتحرك احد لفرض عقوبات على شخوص نظام صدام كما يحدث اليوم في سوريا وليبيا. لقد ادى التحول التقني في الاتصالات الى حقن دماء عزيزة في سوريا، كانت سوف تهدر بكل برود لو كان ما يحدث الآن قد حدث قبل عشرين عاما.

سوف تنتصر ارادة الشعب السوري آخر الامر. سوف تتعالى الحشود على جلاديها ومن يحصد ارواح ابنائها بالرصاص الحي الموجه الى صدورهم العزل. قد يحدث ذلك بتدخل دولي، ولكنه سيكون على ايادي الرجال الساعين الى التحرر من الفكر الشوفيني الذي لا يرى صوابا في غير افعاله ولا يقبل نقدا لها.

على اني ارى ان الحركة الليبية المسلحة هي خير مثال لما كان ينبغي ان يحدث في العراق عام ١٩٩١. فما ان تحرك الشعب وثار على مغتصبي حقوقه حتى اجتمع شمله تحت قيادة موحدة، وأمنت لها موطئ قدم في مدينة بنغازي الشرقية. استطاعوا ان ينشئوا لهم قناة فضائية تنطق باسمهم وعملوا على التواصل مع العالم الخارجي. حتى انهم باتوا قادرين على استحصال بعض التمويل من تصدير النفط ومن المساعات السخية التي تقدمت بها بعض الدول العربية والغربية.

لقد استطاعت المعارضة الليبية المسلحة ان توصل صوتها للعالم، وان تضع قضيتها على طاولة مجلس الامن، واستحصلت الدعم الحربي واللوجستي من دول حلف الناتو، مستفيدة من تخبط حاكم بلدها المخبول معمر القذافي. ويبدو ان الوضع العسكري قد تحول اخيرا لصالحهم بفضل تحسن ادائهم واستمرار ضربات حلف الناتو لقوات القذافي.

كان يمكن لانتفاضة العراق عام ١٩٩١ ان تحصل على مثل هذه المكاسب لو كان لها صوت في الخارج، ليس من خلال وسائل الاتصال التي ما كان لها من وجود في ذلك الوقت، بل من خلال رموز المعارضة الذين اتخذوا من عواصم الغرب ملجأ لهم. لو انهم تواصلوا مع الشعب الثائر بشكل كاف، ولو انهم عملوا على طرح مسألة وطنهم المصيرية امام المحافل الدولية ومارسوا ضغوطا من اجل ايجاد حلول لها، ربما كان الوضع قد تغير، لكن الساعة لا تعود الى الوراء. اليوم يلفظ معمر القذافي انفاسه بعد ان ظن انه مخلد في موقعه مع اولاده. وهو اتخذ من شِبْر شقيقه في الطغيان صدام حسين مثالاً على أن بقية الحكام العرب سائرون في نفس الطريق، كما قال لهم ذلك في مؤتمر قمة دمشق. استمعوا له وضحكوا، لانهم اطمأنوا الى ان النار لن تحرقهم يوما، بعد ان شهدت شعوبها ما حدث في العراق بعد سقوط طاغيته. ولكنهم لم يتعظوا ولم يسعوا الى تخفيف قبضتهم الحديدية على السلطة، وافساح المجال لإصلاحات سياسية حقيقية.

اما بشار الاسد فقد يبقى لفترة اطول قليلا، ولكنه لن يكون اوفر حظا آخر الامر. سوف يرحل عن سوريا او ربما سيعتقل ويحاكم، وسوف يتذكر كلمات معمر، ويتمنى لو انه "اخذ الشور من راس الثور" كما يقول المثل العراقي. وسيتراءى له مشهد الحبل الملفوف على رقبة صدام وهو يسأل نفسه: هل كان يجب علي ان اتخذ من العراق مثالا؟

إذا لم يكن العراق مثالا لانتفاضات الربيع العربي فهو موجود فيها بشكل اوبآخر. واذا لم يود احد الحديث عن ديمقراطية العراق، على الرغم من كل إخفاقاتها وسلبياتها، على انها أنموذج لنظام حكم يخلف الطاغية الذي يسعون لإسقاطه، فان الخيارات تصبح اضيق بعيدا عنه. وفي آخر الامر، سوف تكون نسخة منقحة من ديمقراطية العراق هي ما يسود المنطقة. سوف يتعظ الجميع من الاخطاء التي وقعت في العراق في طريقهم نحو الحرية والعدالة والمساواة، دون ان يذكروا ذلك. فالعراق كان وسيبقى المثال الصامت لثورات العرب الصدّاحة.

إشكالية الاحتجاج والحكومات المنتخبة

كامل داود

في قول لأحد فلاسفة التنوير يذكر فيه ان معاناة الانسان بدأت عندما حدد قطعة من الارض وقال هذه ملكي ،ونحن إذ نسوق هذا القول لا نريد ان ننحى بالبحث منحى قد يوهم الى ما لا نريد ، وانما الغرض من ذلك تتبع السلطة بمفهومها الشائع وهو امتلاك المقدرة على ارغام الآخرين، فمنذ فجر التاريخ أدرك الإنسان بفطرته وبغريزة حب البقاء وحفظ النوع ،ان حياته الجماعية لا بد لها من نظام من نوع ما لكي يواجه تحديات الطبيعة وفك ألغازها وطلاسمها المخيفة والمحيرة .

والحالة هذه لا بد من أن يبرز من بين تلك الجماعات من يستطيع او يدعي انه يستطيع ان يفك تلك الاسرار ويجابه ما يعتريهم من تحديات مختلفة من قوى الطبيعة وجبروتها ،ولايعدم ان يحظى بولاء البعض من هذه الجماعات في سبيل ان يحقق لهم ما ينشدونه من أمن في صراعهم المركب ضد الطبيعة والجماعات البشرية الاخرى ، وكان لهؤلاء ان يتميزوا على غيرهم وان تطاع اوامرهم ومن حقهم ان يمتلكوا ما تنازل عنه الآخرون من حريتهم متبلورا في المقدرة على الارغام ،ومن هنا برزت تلك الظاهرة الخطيرة ،ظاهرة السلطة، فهي خطيرة بقدر ما هي اساسية في حياة الجماعات الانسانية. ولو أمعنا النظر في نشوء ظاهرة السلطة نرى انها لا تعدو إلا وجهين اثنين ليس إلا ،الوجه الأول رغبة الجماعات الانسانية في العيش الآمن ، والوجه الثاني ادعاء البعض بأنهم يمتلكون المقدرة على توفيره . وقد أدى تطور أنماط المعيشة لبني الانسان خلال الزمن الطويل ، ونتيجة لعوامل كثيرة ومتشابكة الى بروز ظاهرة السلطة والتي مازالت قائمة وان كان قد نالها من التطور الشيء الكثير وان تلك الجماعات التي سميت دولا ،لم تتخل عن ظاهرة السلطة ، بل تدعمت وتأكدت وان اختلفت صورتها الاولى ،فقد بقي مبررها القديم كما هو ولم يتغير على الرغم من تعدد الدول وتعدد القائمين عليها واختلاف اساليبهم في ممارستها وتباين الانظمة التي ترسم حدود مزاولتها حتى باتت تكمن في اعتقاد المحكومين اكثر من كونها تكمن في ارادة الحاكمين،ومضى الانسان على سعيه الذي لا ينقطع من اجل الوصول الى مبتغاه في افضل منهج يكفل له تحقيق رغباته الأزلية في العيش الآمن،ومضت الشعوب لتحقيق اهدافها في سلطة تكون ملك الدولة وان الحاكم يمارس السلطة ولا يمتلكها وان الحكومة في ممارستها للسلطة انما تمثل الدولة التي شيدتها تلك الشعوب .

ولطالما أغفل الحاكمون او تغافلوا ذلك العقد في خضم مغريات السلطة ونشوة التربع على كرسي الحكم ، وهم يدركون تمام الادراك ان حكومتهم مهما بلغت من القوة والاستبداد ، فإنها لا تستطيع ان تصمد إلا بموافقة المحكومين وتأييدهم ، لذا فإن الحاكم يسعى الى هذا التأييد ويحرص لنيله وان ألجأه الحال الى البطش والتخويف المفرط ، ولكن اللحظة التي ينزع المحكومون فيها جلباب الخوف هي نفس اللحظة التي تأذن بزوال طغيان الحكومة. إذن نحن هنا أمام إشكالية حقيقية ،قوامها الحاكم والمحكوم بكل تفاصيلها التاريخية ،حاكم تحركه رغبة التفرد بالسلطة ومحكوم ما أن يتنفس الصعداء بعد زوال الحاكم حتى ينسى او يتعمد نسيان تلك الايام السود التي عاشها في كنف الحاكم متوهما أنها لن تتكرر ثانية وقد ولت الى غير رجعة ، ولنا ان نخلص من هذا بالقول ان سوء الحكم والاستبداد لا يكفي وحده للثورة عليه مالم يصحبه إدراك وإحساس بالظلم ، بل ذلك لا يكفي من دون الرغبة في التخلص من نير الظلم ،ولا بد لتلك الرغبة من التمظهر بأسلوب او اكثر من اساليب الاحتجاج على السلطة.

ثقافة الاحتجاج

تختلف أساليب الاحتجاج على السلطة باختلاف ثقافات الشعوب ومخيالها الجمعي المتراكم عبر تجاربها التاريخية في تعاطي أنظمة الحكم ، ومن المؤكد ان الاستبداد هو"فعل"وما دام كذلك فلا بد له من "رد فعل" ، او هو تحدّ واستجابة كما يرى" ارنولد توينبي" ولكن تباين ردود الافعال والاستجابات يحددها طرفان ،الحاكم والمحكوم ، وهما وليدا ثقافة واحدة تقريبا ، فلو اخذنا مثالا من ربيع الاحتجاجات العربية وتحديدا الانتفاضتين المصرية والليبية،لرأينا الاختلاف البنيوي واضحاً بين مساريهما ، سواء بسلوك الحاكمين تجاه المحكومين او العكس، على الرغم من ان التجربتين قد ولدتا من أصول ابستومولوجية واحدة ،ففي الحالة المصرية شباب يقود النخب نحو التغيير باحتجاج سلمي ضد (مستبد حداثوي) ،وفي ليبيا نخب تقود الشباب بأحتجاج مسلح ضد (مستبد قروسطي)، ولعل مرد ذلك الى ما أشيرَ اليه من تباين بين ثقافتي البلدين . ومن هنا تعددت طرائق الاحتجاج في تاريخ الشعوب و الدول متذبذبة بين العنف واللاعنف ، ولعلنا لا نجانب الصواب في القول إن ثقافتنا العربية الاسلامية نحت في اغلبها المنحى الاول وبامتياز ،وقد آن لنا الإقرار بأن رصيدنا التاريخي يقترب من إشهار إفلاسه من الاحتجاج السلمي للحكام والمحكومين على حد سواء .

فقد تدرجت مفاهيم الاحتجاج في مسمياتها من غير ان تفقد رائحة الدماء ، فهي إما "ردّة أو خروج او فتنة "حتى أنقذتنا الحداثة بإصطلاح "المؤامرة"ليسمَ كل من سولت له نفسه بالخروج على السلطان .

ولو بحثنا عن الدلالة المعجمية لأصل مفردة الاحتجاج لوجدناه (في لسان العرب لإبن منظور) مأخوذة من الفعل الثلاثي "حجج" ((و الحجُّ: القصدُ. حَجَّ إلينا فلانٌ أي قَدِمَ؛. والحَجُّ قَصْدُ التَّوَجُّه إلى البيت(الحرَام) بالأعمال المَشروعة فرضاً وسنّة؛ تقول: حَجَجْتُ البيتَ أَحُجُّه حَجّاً إذا قصدته،ويقال للرجل الكثير الحجِّ: إنه لحَجَّاجٌ، واحْتَجَّ البَيْتَ: كَحَجَّه عن الهجري؛ وأَنشد:

تَرَكْتُ احْتِجاجَ البَيْتِ، حتى تَظَاهَرَتْ
عليَّ ذُنُوبٌ، بَعْدَهُنَّ ذُنُوبُ

والتِّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعه الحُجَّة.

وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غلبه على حُجَّته. واحْتَجَّ بالشيءِ: اتخذه حُجَّة؛)) وهناك الكثير من المؤلفات التي من عناوينها (الاحتجاج) ولعل من أشهرها (الاحتجاج للطبرسي) وهي جميعا من باب منازعة الحجة ، وليس هنالك ما يشير من قريب او بعيد الى الدلالة السياسية لمفردة (الاحتجاج) المعاصرة ، إلاّ اذا اردنا ان نلوي عنق المفردة ونعد الحَج احتجاجا سلميا (نوعا ما) على الشيطان الرجيم ، ونثمّن دور ((الحجّاج)) بن يوسف الثقفي في إرساء فلسفة التصدي للاحتجاجات في ثقافة السلطة الموروثة ، وبفعل هذا الأرث الثقيل من القسوة والعنف تلاشت الثقة بين الحكومة والمواطنين ، وبدلا من أن يكون الاحتجاج وسيلة للتعبير عن الرأي، أصبح مؤامرة تهدد استقرار البلاد ، ويصح ذلك القول على البلدان الديمقراطية ذات (الحكومة المنتخبة)، فهناك العديد من حالات القلق والتوتر والخوف التي تسبق الاحتجاج او تواكبه ، فلا مكان للثقة بين الحكومة المنتخبة والمواطنين الذين ألجأهم سوء الحال الى الاعتماد على انفسهم في توصيل اصواتهم والصدع بحاجاتهم بعد ان يأسوا من نوابهم المنتخبين واستحوذ عليهم الندم والإحباط وأحسوا بأنهم قد وقعوا ضحية لعملية نصب واحتيال من قبل مؤسساتهم المنتخبة .